مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 17/ العـدد 02 –السنة 2024 ص ص 333–354
EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8152
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

القيم العرفانية في القصيدة المنفرجة وفي إحدى مخمساتها

The gnosticism values in the almunfarija poem and one of its fifths

تاريخ الاستلام: 2023/01/12 تاريخ القبول: 2024/01/31 تاريخ النشر: 2024/02/01

أ. دليلــة مكســـح *
جــامعة الحاج لخضر – باتنة (الجزائر)
Email : dalila.meksah@univ-batna.dz

الملخص:

يهدف البحث إلى عرض القيم العرفانية، التي وردت في القصيدة المنفرجة وإحدى مخمساتها، ولفت انتباه الدارسين لقيمة القصيدتين، وما تحويانه من عناصر فكرية، تكشف عن مرجعيتيهما.

وقد توصل البحث إلى وجود قيم متشابهة وقيم مختلفة، تتعلق بالخلفية الفكرية لكل شاعر، وغايات نظمه لقصيدته، ومن ثم اكتشاف طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين المذاهب من خلال هذين النموذجين.

الكلمات المفتاحية: القيم ، العرفان ، القصيدة ، المنفرجة ، المخمسات

***Abstract*:**

The research presents the Gnosticism values, which are mentioned in the Almunfarija poem and one of its fifths.

The research has concluded that there are similar values and different values, related to the intellectual background of each poet, and the goals of Organized for his poem, and to discover the temperament of the relationship that existed between the jurists and the Sufis through these two models

*.**Keywords**: the value, the Gnosticism, the poem, Almunfarija, fifths.*

* المؤلف المرسل

1. المقدمة

ارتبط ظهور القصيدة المنفرجة وما انبثق منها من شعر مخمس وغيره، بالفترات المتأزمة التي كان يمر بها المغرب العربي، بخاصة في القرنين 6 – 7 هـ، 12- 13 م، إذ تفشت مظاهر الظلم والتعدي من جانب الولاة، وجباة الضرائب، فضلا عن كون المرحلة شهدت تعاقب دول عدة، وما تبع ذلك من اضطراب سياسي واقتصادي واجتماعي، جعل الناس ومنهم الشعراء يلجؤون إلى الله بالشكوى والتوسل والتضرع.(بونابي، 2004 ص 257)

وتتأسس إشكالية هذا البحث حول الخصوصية الفكرية للقصيدة المنفرجة، وقصيدة مخمسة عنها، ومدى تحكم المرجعيات الدينية في قيمهما، خاصة أن هذا اللون من القصائد يحتكم إلى البعد الديني في تأسيس مضامينه، ويفترض البحث أن الكشف عن طبيعة القيم الفكرية المكونة للبنية الموضوعية للقصيدتين، هو منفذ مهم لمعرفة أهم التيارات الصوفية والدينية التي كانت سائدة، وخصوصية التأثيرات الفكرية والروحية على العلماء والفقهاء والصوفية .

أما الهدف من البحث فهو التذكير بالقصيدتين، ومنه بيان خصوصية هذا اللون الشعري وأهميته، باكتشاف أبعاده الفكرية، وطبيعة التيارات المؤثرة في بنياته الموضوعية، ومن ثم تحديد أوجه التقارب والتباعد بين القصيدتين، ومدى إمكانيتهما في جعل المتلقي يتلمس المؤثرات التاريخية والمذهبية فيهما، كما يروم البحث إلى دعم ما قُدِّمَ من دراسات حولهما، بخاصة في مجال الأبعاد الفكرية التي عبرت عنها كل قصيدة، والتعمق في رصد خصوصية التجربة الروحية لكل شاعر.

وقد تم الاعتماد منهجيا على آليتي الوصف والتحليل في مستوى التعريف بالقصيدتين، وبشاعريهما، وطبيعة المرحلة التاريخية التي ظهرتا فيها، إلى جانب

الاعتماد على المقارنة في مستوى رصد التأثيرات الفكرية والمذهبية على القصيدتين، والنظر في القيم المتشابهة والمتفرقة فيهما.

2. القصيدة المنفرجة والقصيدة المخمسة لها – النشأة والخصائص المذهبية

الحديث عن القصيدتين قيد الدراسة، هو حديث عن الشاعرين يوسف بن مُحَمَّد بن يوسف التوزري التلمساني، المعروف بأبي الفضل بن النحوي (433 - 513 هـ / 1041 – 1119 م) (نويهض، 1996 ص 329) وأبي مُحَمَّد عبد الله بن نعيم الحضرمي القرطبي (ت 636 هـ / 1239 م) (الغبريني، 1979، ص 325)، وهما شاعران وفدا إلى المغرب الأوسط من المغرب الأدنى.

وفد الأول إلى قلعة بني حماد بعد خروجه من مسقط رأسه بتوزر، لاعتداء واليها عليه، فاستقر بها ثلاث عشرة سنة (بونابي، 2004، ص 258)، والثاني أيضا نشأ بتونس، وتوفي بقسنطينة عام 636 هـ(الغبريني، 1979، ص 325)، وقد كان لهما فضل كبير على أبناء المغرب الأوسط في مجاليهما الفقه والتصوف.

ويعد أبو الفضل بن النحوي أول شاعر نظم القصيدة المنفرجة، المعروفة باسم الجيمية(الغبريني، 1979، ص 258)، وقد حوت توسلا وابتهالا لله سبحانه وتعالى حتى يتحقق الفرج، وكان ابن النحوي قد ألمَّتْ به نائبة، ضيَّقتْ عليه، وعلى أهله العيش، فلاذ بالخالق متضرعا بقصيدته المذكورة التي شاعت بعد ذلك في الأقطار، وبقي صيتها منتشرا، واهتم بها العامة والخاصة في القرنين 6 - 7 هـ، وصارت أثرا يستعان به كلما حلت النوائب، تيمنا وتبركا بأبي الفضل، ومن الذين تأثروا بالقصيدة المنفرجة أبو مُحَمَّد عبد الله الحضرمي القرطبي، الذي قام بتخميسها بعد شدة أصابته، فكانت النتيجة حسب ما أورده أبو العباس الغبريني، خلاص القرطبي من أسره، ما يبين استمرارية تأثيرها (الغبريني، 1979، ص 326، 332) حسب ما يزعم.

والملاحظ في هذا الأمر أن القصيدة المنفرجة حين ظهرت على يد ابن النحوي، لم يكن الهدف منها التبرك، بل كانت الغاية التقرب من الله عز وجل بالإنابة، والتضرع، وطلب العون والهداية، إلا أن الذين جاؤوا من بعده، خرجوا بها من إطار التقرب من الله سبحانه وتعالى بالتوسل والابتهال، إلى إطار التبرك بالقصيدة في حد ذاتها، وجعلها وسيلة للخلاص، مثلما فعل أبو مُحَمَّد عبد الله الحضرمي القرطبي، الذي قال عنه الغبريني إنه استعان على الأزمة التي أصابته بأبي الفضل النحوي وبقصيدته "التماسا لبركاتهما، وإظهارا لمزيتهما" (الغبريني، 1979، ص 326)،ما يُظهر حجم التغيرات التي طرأت على الوعي الديني، الذي على ما يبدو بدأ يخرج عن نطاقه الصحيح، ما أدى به إلى شيء من الانحراف؛ ورغم ذلك لا نغمط حق القصيدتين في كونهما مرجعين مهمين لما فيهما من قيم عرفانية عميقة، وأسرار ملفتة يمكن للعبد الاستعانة بها في مشوار حياته، كما أنهما تحيلان المتلقي إلى طبيعة المرحلة التي وُلِجَتَا فيها، نطلاقا من القيم المبثوثة فيهما، والتي تُمكّنه من كشف نوعية المذهب الذي ينتمي إليه الشاعر، وأثره على أفكار القصيدة.

وإذا عدنا للتقسيمات التي أوردها الطاهر بونابي في كتابه (التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين)، فإن ابن النحوي ينتمي إلى تيار الغزاليين نسبة لأبي حامد الغزالي، وهو فرع من فروع التصوف السني الفلسفي، الذي له تعاليمه الخاصة، ويتميز فرع الغزاليين عن بقية فروع التيار الصوفي السني الفلسفي بـ"الالتزام بالقرآن والسنة، والتركيز على تصفية النفس، وتجريدها من علائق البدن بواسطة أنواع المجاهدات والرياضات، كالقيام والصيام والخلوة والذكر، التي تقود القلب إلى كشف حجاب الحس، وإدراك الحقائق الإلهية، واكتساب العلوم اللدنية." (بونابي، 2004، ص 11)

وقد شاع عن ابن النحوي أنه من المسهمين في نشر نظرية الغزالي الصوفية في قلعة بني حماد، حيث بدأ بتطبيقها على نفسه، بأن التزم الصيام والقيام والتهجد، حتى

أصبح لا يشعر بمن حوله أثناء تأديته الصلاة لحضوره مع الحق، وغيابه عن الخلق، كما اقتدى في أخلاقه بالسلف الصالح، وكان الغالب عليه الخوف من الله، لذا انكشفت له أسرار الملكوت، وحصلت له الكرامات. (بونابي، 2004، ص 116)، أما أبو مُحَمَّد عبد الله الحضرمي القرطبي، فقد قال عنه الغبريني أنه كان شيخا فقيها جليلا، وكاتبا مُجَوِّدا وفاضلا أديبا، منتصبا للتدريس والرواية، وأن إشرافه على بجاية في عهد السيد ابن عمران من بني عبد المؤمن، كان قائما على سنن العدل، والتزام طرق الفضل. (الغبريني، 1979، ص 325)

والمعلوم مما تناقله الدارسون أن العلاقة بين الفقهاء والمتصوفة، كانت في غالب الأمر قائمة على الصراع، بسبب اهتمام الفقهاء بالظاهر من الدين، واهتمام الصوفية بالباطن منه (منصور، د.ت، ص 22)، وهو ما شكل كثيرا من الصدامات بين الفئتين، حفظتها كتب التاريخ، إلا أن ما يلحظ من خلال تخميس القرطبي لقصيدة ابن النحوي، وإعجابه بها، يوحي بطيب العلاقة بين تيار الفقهاء وتيار الصوفية، ومرد ذلك كما يذكر الطاهر بونابي هو جو الحرية والانفتاح والتسامح، الذي كان سائدا في شرق المغرب الأوسط، في المرحلتين الحمادية والمرابطية، ما سمح للعلماء والفقهاء والصوفيين من معارضة بعضهم بعضا بطرق سلمية، والتعايش فيما بينهم. (بونابي، 2004، ص 209، 210)

إن بيان مذهبي الشاعرين، إنما هو إشارة إلى طبيعة المرحلة التي عاشا فيها، وهي فترة القرنين 6، 7 هـ، وما شهداه من صراع سياسي نتج عنه اضطراب اجتماعي وثقافي، وبرغم ذلك ظل المغرب الأوسط بخاصة في حاضرتي بجاية والمسيلة، منفتحا على جميع التيارات والمذاهب، ما دفع صوفية المغرب عامة، والأندلس إلى اللجوء نحو حواضر المملكة الحمادية، والتمتع بجو الحرية والتسامح، وما القصيدة المنفرجة ومثيلتها

المخمَّسة، إلا نموذجا صريحا لذلك الجو الفكري الذي كان سائدا، وإن تخللته صراعات تقتضيها سنن الحياة والاختلاف.

3. القيم العرفانية في القصائد المنفرجات بين التوافق والاختلاف

تتشعب مسألة العرفان، وتتباين بين التيارات الصوفية؛ ولكنها في جوهرها تعني معرفة الله سبحانه وتعالى، والمعرفة عند البعض أخص من العلم؛ لأنها علم يُعيّنالشيء مفصلا عما سواه، لذلك فكل معرفة علم، وليس كل علم معرفة، والمعرفة تتعلق بذات الشيء أي مسماه، والعلم يتعلق بأحواله وصفاته، كما أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره، والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره. (بليل، 2009، د. ص)

ويفرق الصوفية بين العلم والمعرفة، فالعلم عندهم هو مَلَكَةٌ، تحصل في الشخص بحسب استقرائه لضوابط العلم وقوانينه بالقدر الذي يمكنه من أن يدفع جميع وجوه الإشكال، والتلبيس عن ذلك العلم، وفي نظرهم كل علم يمكن أن يتأتى حفظه ونشره لمنافق أو مبتدع أو مشرك، إذا حرص عليه؛ لأنه نتيجة الذهن وثمرة العقل، إلا علم الإيمان والإيقان – أي التصوف – فإنه لا يستطيعه إلا مؤمن موقن، والإيمان بذلك مرادف للمعرفة، إذ يعنيان كشف الشيء على ما هو عليه (بريكة، 2006، ص 251،...، ص 254) أي معرفة الله ذوقا، ولذلك تتحدد المعرفة الصوفية في كونها معرفة ذوقية، تقود إلى معرفة الله بالكشف والإلهام؛ لأنها تأتي "القلب مباشرة دون إعمال العقل، ودون استخدام الحواس، فهي إذن معرفة خاصة". (بريكة، 2006، ص 254)

وتشترك القصيدتان المخصصتان للبحث في تأسسهما على غرض التوسل والابتهال لله سبحانه وتعالى، وإبراز الطريق الحق الذي يوصل للكمال والفوز في الدنيا والآخرة، ويفترقان في مسألة بعض القيم التي يتوجب على العبد الاتصاف بها، ومسألة التوافق قائمة في كون ابن النحوي والقرطبي لهما باع طويل في الفقه، ومعرفة

أصول الشريعة، ومسألة الاختلاف تظهر في أن القرطبي كان فقيها فقط، مع ما يظهر في قصيدته من انفتاح على التصوف، والأمر ذاته مع ابن النحوي الذي كان متصوفا، ولكنه ملم بالشريعة؛ لأن تيار التصوف السني الفلسفي الذي ينتمي إليه ابن النحوي يجمع بين الفقه والتصوف، ولا يرى حرجا في ذلك.

3.1 قيم التوافق

يحرص الشاعران في قصيدتيهما على بيان ما وصلا إليه من علم، وما تحقق لهما من معرفة، محيلان كل ذلك إلى مشيئة الله وحكمه، ذلك أن الحصول على المعرفة إنما هو مِنَّةٌ من الخالق على عباده، ولكنهما يؤكدان أن مسألة الحصول على المعرفة، تحتاج إلى نفس تقية، وزاهدة، وراضية بقضاء الله وقدره، لذلك تصير الأزمات والشدائد مجرد عقبات مؤقتة، يتم من خلالها اختبار العبد في إيمانه وتقواه.

وبالنظر إلى ترتيب المقاطع الشعرية في كل قصيدة، نكتشف مواطن التوافق القِيمي، كما نقف على كون القصيدتين لم تكونا للابتهال والتوسل فقط، بل خَصَّ فيهما الشاعران مذهبهما في مسألة العرفان، إذ يتدرج كل واحد منهما في ذكر أهم المقامات التي يجب على المريد سلوكها، بخاصة إذا ألمت به نائبة، وبذلك فالقصيدتان ترشدان العبد إلى سبيل النجاة في الحياة، التي يتقلب فيها بين العسر واليسر، وهو إرشاد اعتمدا فيه على بيان ما يهذب النفس، وما يعينها على تحمل الشدائد، وبذلك يمكن القول إن القصيدتين لم تكونا مجرد قصيدتي توسل وابتهال، وإنما زادتهما المرجعية الصوفية أبعادا أخرى، ذات صلة بتربية النفوس وتقويمها وتعليمها، وكأنهما بذلك تبثان الجديد في مسألة التوسل والابتهال الذي لم يعد فيهما رهين الاستسلام التام لمصاعب الحياة، وإنما فرصة للحصول على يقين جديد يمد النفس بمعان مختلفة، وقد عددت عائشة حسن شراز الزهراني مجموعة من القيم التربوية التي زخرت بها القصيدة

المنفرجة، والتي تمتد حتما إلى بقية القصائد المنبثقة عنها تشطيرا أو تخميسا، نذكر منها: انتظار الفرج عند تشدد الأزمات، واستشعار ألطاف الله عز وجل، والإكثار من الأعمال الصالحة، والتوبة من المعاصي والذنوب (الزهراني، 2022، ص 558 وما بعدها)، وغيرها من القيم التي تبني الفرد تربويا، وتهذبه ليكون عبدا صالحا ومحسنا الظن بربه.

1.1.3 قصيدة ابن النحوي

يفتتح ابن النحوي قصيدته المنفرجة بمفهومه لمعنى الأزمة والشدة، وفي الآن نفسه بيان درجة إيمانه، ومستوى يقينه بأن لكل أزمة حلا، ولكل عسر يسرا، فيقول متيقنا من الفرج:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو السرج

وسحاب الخير له مطر فإذا جاء الإبان تجي (النحوي، 2017، د.ص)

وهذا الإيمان المطلق بالفرج ناتج عن علم ابن النحوي بالله، والمعروف في مسألة العلم عند الصوفية أنه قائم على ثلاث مراتب، وهي العلم بالله، والعلم من الله، والعلم مع الله (بريكة، 2006، ص 252)، وهذه المراتب مشار إليها جميعا في القصيدة وبالترتيب المذكور، إذ يشير الشاعر بعد بيان يقينه بالفرج إلى علمه بالله، وبصفاته، وهو علم لابد منه حتى يتمكن العبد من سلوك سبيل الحق؛ لأن العبودية الحقة لا تتحقق إلا بعد العلم بصفات الله ونعوته:

وفوائد مولانا جم لسروج الأنفس والمهج

ولها أرج محيي أبدا فاقصد محيا ذاك الأرج (النحوي، 2017، د.ص)

إن إدراك عظمة الخالق، وحكمة تدبيره، هو المنفذ الأساسي لسلوك طريق الحق، لذلك يؤكد الشاعر على أهمية الاستمرارية في هذا الشأن، فكل تقاعس من العبد، أو

شك في أحكام الله، يقوده حتما إلى المعصية، وهي في عمقها جهل بالله، وليس علما به:

فإذا انفتحت أبواب هدى فاعجل بخزائنها ولج

وإذا حاولت نهايتها فاحذر إذ ذاك من العرجِ (النحوي، 2017، د.ص)

والعرج الذي يشير إليه ابن النحوي، مرتبط بتدرج العبد في سبيل المعرفة، إذ كما هو متعارف عند الصوفية، فإن المريد يمر بمراتب ومقامات، ولكل مقام بداية ونهاية، ويطرأ على العبد في المقام الواحد أزمات وشدائد، إلى جانب اللطائف والمسرات، وكلما واجهها بالصبر، وبمراقبة النفس، وبالاستقامة، مر بسلام، لذلك يؤكد الشاعر على ضرورة الثبات، وأن لا يكون انتهاء العبد من المقام الواحد مطية للتخاذل أو للإعجاب بالنفس، وأن يظل مراقبا لنفسه، متشبثا بحبل الله المتين؛ لأنه في مرتبة العلم بالله يكون بحاجة إلى الإصلاح الدائم لجوارحه "بالتوبة والتقوى والاستقامة." (بريكة، 2006، ص 116)

إن الثبات على الحق يتطلب من العبد امتلاكه للعلم في مرتبته الثانية، أي العلم من الله، والذي يتعلق بإدراكه لأحكام الله من حرام وحلال، وبدونه لا يمكنه إدراك أي السبل أصح للسلوك فيها، ويتطلب الثبات في هذه الرتبة "إصلاح القلوب بالإخلاص والصدق والطمأنينة." (بريكة، 2006، ص 116)، وهي أحوال لا يمكن للعبد عيشها؛ إلا إذا أيقن ما شرعه الله، ولزمه ملازمة الحق.

والعلم من الله، الذي يجعل العبد قائما بحق العبودية، باجتناب المعاصي والتقرب بالطاعات، تكون ثمرته أن يصير العبد من السُبَّاقِ، وقد قسم الصوفيةُ الناسَ انطلاقا مما جاء في القرآن، إلى ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، حيث يقول الله

سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (سورة فاطر الآية 32)

ويُعَدُّ المقتصِد والسابق بالخيرات ممن أدركا الله حق الإدراك؛ إلا أن ذلك لا يمنع عنهما ارتكاب الذنوب، لذلك تأتي الأزمات كمكفرات عن ذنوبهما (تيمية، 1990، ص 8)، وهنا تبرز قيمة المجاهدة، وتهييج الأعمال ظاهُها وباطنُها، إذ يرى عبد الرحمن بن خلدون أن القلوب قد فرض عليها الله سبحانه وتعالى عملا من الاعتقادات، وفرض على الجوارح عملا من الطاعات، وهي التي تسمى باطنة وظاهرة (خلدون، 1996، ص 37)، وليس من غاية للمجاهدات سوى الفوز برضوان الله، وقد عبر ابن النحوي عن ذلك، وهو الابتهاج الذي يكون ثمرة للانتهاج:

لتكون من السُبَّاق إذا ما جئت إلى تلك الفرج

فهناك العيش وبهجته فبمبتهــج وبمنتهـــج

فهج الأعمال إذا ركدت وإذا ما هجت إذن تهج (النحوي، 2017، د.ص)

واستمرارية العبادات والأعمال الصالحة هي نهج العبد المؤمن كما يبين ابن النحوي، هذا النهج الذي يقوده للحصول على ثمرة اجتهاده، فيصير من العباد السُبَّاق.

وإذا كان العلم بالله يُمَكِّنُ العبد من معرفة صفات خالقه بعد إصلاح جوارحه، والعلم من الله يمكنه من تحقيق عبوديته لخالقه بعد إصلاح قلبه، فإن العلم مع الله، لا يتحقق للعبد إلا بالجمع بين العلمين الأول والثاني مع الانتقال إلى نوع ثالث من الإصلاح، وهو "إصلاح السرائر بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة." (بريكة، 2006، ص 116)، وتكون نتيجته مُسِرَّة، وتسمى المجاهدة التي تتعلق بمرتبة العلم مع الله بمجاهدة الكشف والاطلاع، وهي التي يتم فيها "محو الصفات البشرية، وتعطيل القوى البدنية بالرياضة والمجاهدة" (خلدون، 1996، ص 82)، وثمرة هذا النوع من المجاهدات، هو

الفوز برضوان الله الذي يجعل العبد حاضرا مع الله بذكره الدائم له، وقد عبر عنه ابن النحوي بقوله:

فكن المرضي لها بتقى ترضاه غدا وتكون نجي (النحوي، 2017، د.ص)

ومقام التقوى والرضى لا يتحقق كمالُه إلا بالمجاهدة عبر أعمال ظاهرة، وأخرى باطنة، فمن الظاهر أشار ابن النحوي إلى تلاوة القرآن، وقيام الليل، وتدبر المعاني:

واتل القرآن بقلب ذي حزن وبصوت فيه شجِ

وصلاة الليل مسافتها فاذهب فيها بالفهم وجي

وتأملها ومعانيها تأتي الفردوس وتبتهجِ (النحوي، 2017، د.ص)

أما الأعمال الباطنة، فركز الشاعر على مسألة التذوق، وذلك بإعمال الحواس، والصبر على المكاره، وهذا الانتقال من الظاهر إلى الباطن، يبدأ من انفتاح أبواب الهدى بعد امتلاء النفس باليقين والعلم بالله، ثم بمراعاة ما تتطلبه أوامر الله ونواهيه، وذلك بالعلم من الله، وينتهي إلى إبصار منارات الهدى، حيث يتحقق العلم مع الله، وبين هذه المراتب مجاهدات كثيرة، ومشاق عسيرة، ولكن تمسك النفس بالشوق إلى الله، مع مراعاة أحكامه، لا يوصل إلا نحو الفلاح:

وإذا أبصرت منار هدى فاظهر فردا فوق الثبـجِ

وإذا اشتاقت نفس وجدت ألما بالشوق المعتلـــــج

وثنايا الحسنا ضاحكة وتمام الضحك على الفلج

وغياب الأسرار اجتمعتْ بأمانتها تحت الســـــرج (النحوي، 2017، د.ص)

إلا أن الأمر الذي يؤكده ابن النحوي، ويؤكده عامة الصوفية هو ضرورة ارتباط المريد بشيخ سالك يقوده، وبصحبة ترافقه؛ وأهمية الشيخ السالك تكمن في أنه خُبِر "المجاهدات، وقطع بها طريق الله، وارتفع له الحجاب، وتجلت له الأنوار" (خلدون،

1996، ص 84، 85)ولو أن الشاعر لم يُشر إلى أمر الشيخ مباشرة، ولكنه أشار إلى ما يقوم به المريد من بعد ذلك، عبر تخليه عن الصحبة، والانطلاق في التدرج الفردي نحو ما بقي من مراتب في قوله:

وإذا أبصرت منار هدى   فاظهر فردا فوق الثبج   (النحوي، 2017، د.ص)

وإذا كان أبو يحيى زكريا بن مُحَّد الأنصاري الشافعي في شرحه للقصيدة المنفرجة قد فسر معنى لفظ (فردا) بمعنى التميز والتفرد (الشافعي، 2017، د. ص)، فإني أرى احتمالها لمعنى الانفراد أيضا؛ لأن المريد وإن صحبه الشيخ، فهو بحاجة إلى "الانفراد عن الخلق بالخلوة" (خلدون، 1996، ص 85) حتى تنكشف له الأسرار التي هي ثمرة مجاهداته، ولصيقةٌ بذاته وهي تدرك ذاتها، وخالَقها الذي يجود عليها بأسراره، وبذلك نكتشف أن القصيدة المنفرجة لها فلسفتها الخاصة التي تتشكل عبر مستويين: "فأما الأول، فيتمثل في كثافة الأفعال الموجهة للسالك المريد، وأما المستوى الثاني، فيبدو واضحا في تلك المقولات الصوفية، وتقريبها إلى الأذهان بواسطة التمثيل" (خريوش، 2007، ص 139)، وهذه الفلسفة هي التي تتكرر في القصائد المنبثقة عنها، وإن كان لكل شاعر أسلوبه وطريقته في التعبير.

2.1.3 قصيدة الحضرمي القرطبي

لا تختلف قصيدة القرطبي عن قصيدة ابن النحوي من حيث المضمون، أو من حيث بيان المراتب التي يسلكها المريد، ويمر بها لتحقيق المبتغى، ذلك أن قصيدة القرطبي كانت مفلِّقة وشارِحة لقصيدة ابن النحوي، وفيها توسٌّع نظيرَ الشرح الذي أقامه الشاعر، وهي تشترك مع المنفرجة في إظهار فكرة التدرج في مراتب العلم الثلاثة: العلم بالله، والعلم من الله، والعلم مع الله، والرابط بين كل هذه المراتب هو البعد الأخلاقي للمريد لا محالة؛ لأن التصوف في جوهره هو "طريقة سلوكية بالأصالة قوامها التقشف

والزهد، والتخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل"(دوية، 2015، ص 86.)، فإذا ما تحلت النفس بذلك أمكنها أن تتدرج في المراتب، ولو كان الطريق صعبا وشائكا.

ويقف القرطبي في بدايات قصيدته على بيان اليقين الذي حصل له من خلال معرفته بالله، وهو يقين قائم على الإيمان بأقدار الخالق، والقبول بها، وإن لم يتم إدراك الحكمة منها، وكل ذلك داخل في مسمى الثقة بالله، وحسن الظن به كما يرى الشاعر :

يا نفس رويدك لا حرج وثقي بالله عسى فرج
وكذا ما ضاق له فرج وظلام الليل له سرج
حتى يغشاه أبو السرج
فلكل محاولة قدر وقضى لا يدفعه حذر
ورجوعك عن هذا غرر وسحاب الخير له مطر
فإذا جاء الإبان تجي (الغبريني، 1979، ص 326)

وبعد العلم بالله الذي يمنح العبد قوة في الإيمان، وانشراحا في الصدر، نتيجة الرضا بحكم الله، والإقرار بحكمته وحسن تدبيره، ينطلق الشاعر إلى بيان أصول المرتبة الثانية، وهي:العلم من الله، الذي يمكّن العبد من التمييز بين الحسن من الأعمال، وبين السيء منها، وبذلك يعينه على مراجعة نفسه، ومراقبتها، والمبادرة بالتوبة حال وقوعه في المعصية؛ لأن الوصول إلى المراتب العليا لا يحصل "بالتمني والادعاء (...) وإنما تنال بالعمل المتواصل والجهاد"(موسى، 2015، ص 137)، وهو ما أظهره الشاعر وعبَّر عنه:

وتلاف هديت حيا حيا إن أنت ظفرت به تحيا
واقصد بالجد لما أحيا فلربتما فـــاض المحيـــا
ببحور الموج من اللجج
فعليك بصافي مورده لتكون الفائز في غده
والله مصرف مقصده والخلق جميعا في يـــده
فذوو سعة وذوو حرج (الغبريني، 1979، ص 327)

إن تحقيق الفوز كما هو ظاهر في هذا المقطع، إنما هو ثمرة المجاهدات المتواصلة، والتي يكون أساسها العلم من الله، الذي يقود إلى تبين الطريق، ولذلك فالمرور إلى المرتبة الثالثة، وهي: العلم مع الله تحتاج من العبد المجاهدة المستمرة، بمراقبة النفس، وتحفيزها على الإتيان بالطاعات، وتجنب المعاصي، والاتصاف بالصدق، حتى يحصل الفوز والرضوان؛ لأن العلم مع الله لا يحصل إلا للنفس الزكية المطهرة صافية السريرة، فيعبر الشاعر عن ذلك بقوله:

قد حاز الخير مراقبهم ونجا في الحشر مصادقهم
واستقلتْ فيه مناقبهم ومعائشهم وعواقبهم
ليست في المشي على عوج
فهناك معان قد كتمت ولقد كشفت حتى فهمت
لعقول صافية سلمت حكم نسجت بيد حكمت
ثم انتسجت بالمنتسج (الغبريني، 1979، ص 327)

والملاحظ في هذا المقطع اهتمام القرطبي بالإشارة إلى ما يتكشف للعبد من معان وأسرار، وهو شكل من أشكال الفوز التي يتوق إليها الصوفيون، ويبذلون المهج لأجلها، وهذا الانبساط على فكرة الأسرار المتكشفة، هو انفتاح من رجل فقيه، وهو القرطبي على التيار الصوفي، وإقرار بمبادئه.

وتكمن قيمة الأسرار كما يبينها الشاعر في أنها لا تتحقق بالإيقان أو الإيمان، بل بهما معا، والملفت للانتباه أن ما يتوصل إليه العبد من أسرار ليس مرده اجتهاداته ومثابراته، وإن كان ذلك ضروريا، وإنما السر كله في مشيئة الله واختياره، وقد عبر الشاعر عن ذلك حين قال:

لعقول صافية سلمت حكم نسجت بيد حكمت

ثم انتسجت بالمنتسج (الغبريني، 1979، ص 327)

2.3 قيم الاختلاف

إن اشتراك القصيدتين في ذكر مراتب العلم، وصفات النفس التي وجب التحلي بها للحصول على الرضوان، لا يعني أنهما نسخة طبق الأصل، وبرغم أن قصيدة القرطبي هي شرح لقصيدة ابن النحوي، إلا أن الدارس يكتشف تنوعا في القيم، وهي ليست محل خلاف في حقيقتها، ولكن القرطبي توسع فيها، وأفاض، حتى بدا أنه صوفي، وأن ابن النحوي فقيه لا غير، فالمسألة مسألة توسع فقط، وربما هذا التوسع ناتج مما حصل للتصوف من تطور، كان ابن القرطبي الذي جاء من بعد ابن النحوي على دراية به، كما أن طبيعة التيار الصوفي الذي ينتمي إليه ابن النحوي لا يتعارض مع الفقه الإسلامي الذي هو اختصاص القرطبي، الذي يبدو لنا مدى تأثره بالقصيدة المنفرجة، ومدى عنايته بنقل معانيها، والتوسع فيها بما يعمق مفاهيم التدرج في مسالك الأحوال.

يلفت القرطبي في قصيدته إلى مسألة هامة لم يتوسع فيها ابن النحوي، وهي مسألة السلامة، أي سلامة الاعتقاد، مع سلامة الاجتهاد، فالعبادة مرتبطة بضرورة أن يتوخى العبد الحذر في مسألة المعتقد، وأن يجتنب الشبهات حتى لا يقع في

المعصية، وبدون سلامة الاعتقاد، لا تتحقق له سلامة الاجتهاد؛ لأن العبد مهما بذل من مجاهدات في عبادته، فإنها لن تضيف شيئا إذا كان معتقده فاسدا:

فتحر بما تلقى رشدا لا يمضي عمرك عنك سدى
واقطع أيامك مجتهدا وإذا انفتحت أبواب هـــدى
فاعجل لخزائنها ولج (الغبريني، 1979، ص 328)

وسلامة الاعتقاد والاجتهاد تتعلق في عمقها بطبيعة الأعمال التي يقوم بها العبد، ويسميها الصوفيون شريعة وطريقة وحقيقة، "فالشريعة لإصلاح الظواهر، والطريقة لإصلاح الضمائر، والحقيقة لإصلاح السرائر." (بريكة، 2006، ص 116)، وهذا التنوع يتطلب داوم الحرص على سلامة الاعتقاد الذي يجبُّ عن العبد الوقوع في المهالك، فإصلاح الظواهر أو الضمائر أو السرائر مرهون في الأساس لسلامة الاعتقاد، ثم يكون الاجتهاد ضرورة ثانية للوصول.

والمسألة الثانية التي يلتفت إليها القرطبي هي ضرورة الارتباط بالواقع، والانغماس فيه، ويبدو بذلك ضد العزلة التي يلوذ إليها بعض المتصوفين، الذين يبتعدون تماما عن خوض غمار الحياة، وذلك من خلال دعوته إلى الصدع بالحق والقول به وعدم إخفائه؛ لأن ذلك أحد اللبنات الأساسية في مسألة التدرج، ومكمل لسلامة الاعتقاد والاجتهاد:

لا تلف لعين الدين قذا فتكون بظهر منتبذا
فاصدع بالحق إذا نفذا لتكون من السُبَّاق إذا
ما جئت إلى تلك الفرج (الغبريني، 1979، ص 328)

ويبدو أن هذه الدعوة إلى الصدع بالحق، ذات صلة بالظروف التي كانت سائدة في عصر القرطبي، وبالجو الفكري العام، وبدور الرجل بحد ذاته كفقيه وعالم لابد أن تكون له بصمته في واقعه.

والعزلة الحقيقية التي يحث عليها القرطبي، هي اعتزال الشبهات والملذات والشهوات التي تقود العبد إلى الزلل لا محالة:

لا تقرب أمرا مشتبها ودع الدنيا لتقلبها
واضرب عن لذة مشربها من يخطب حور العين بها
يظفر بالحور وبالغنج (الغبريني، 1979، ص 329)

إن مراقبة النفس بالابتعاد عن الشبهات، والمبادرة إلى التوبة تقود حتما إلى تحقيق المرتبة الثالثة من العلم، وهي العلم مع الله، حيث يفصل القرطبي هذه المرتبة بالإشارة إلى مبدأي البعد والقرب، والفناء والبقاء، فالبعد عبَّر عنه بالإبصار، والقرب عبَّر عنه بالنظر، ويتعلق الأول بمرحلة الدخول في لحظة التجلي والكشف، التي تكون في محل بُعد وباطن، تحتاج من العبد كثيرا من المجاهدات، ثم تليها مرحلة الانغماس في التجلي حيث تنكشف الأسرار، ويتحقق القرب، وهنا يتحول الإبصار إلى نظر؛ لقرب السر من العبد الذي يكون قد مر بمراحل التلوين، ووصل إلى مرحلة التمكين حيث يبدأ التذوق، ويتحقق معه الفناء ثم البقاء اللذين هما "آخر الأحوال وقمتها" (حنفي، 2009، ص 477)، وهو ما عبر عنه الشاعر في قوله:

فإذا أبصرت مبانيها فانظر إذ ذاك معانيها
واذكر بالفكر غوانيها وتأملها ومعانيها
تأت الفردوس وتنفرج
ومتى ما فزت بمنظرها فاستنشق ريح معطرها
واعجب لجمال معصفرها واشرب تسنيم مفجرها
لا ممتزجا وبممتزج (الغبريني، 1979، ص 330)

وأهم ما يشير إليه القرطبي في قصيدته هو بيان جوهر التدرج من مرتبة إلى مرتبة، ويتمثل في اجتناب الإعجاب بالنفس، وردُّ كل أمر، وكل اعتماد إلى الله سبحانه وتعالى مع استدامة الحمد في كل حال؛ لأن من مفسدات المجاهدة العجب

والفرح والقنوع بما ينكشف ويبدو من أوائل الكرامات، فيكون ذلك الإعجاب قاطعا للطريق (خلدون ا.، 1996، ص 87)، هالكا للنفس؛ لأنها إذ تطمئن لذاتها وتعجب بها تفقد قدرتها على تتبع الأنوار والنعم الربانية:

بأبي نفسي لما انفردت فعلى الرحمن قد اعتمدت
وحداها الشوق لما قصدت وإذا اشتاقت نفس وجدت
ألما بالشوق المعتلج
العجب يطيش براكبه فتجنب ذروة غاربه
والصبر عليك بلاحبه والرفق يدوم لصاحبه
والخرق يصير إلى الهرج
فاصدع لإلهك بالحمد فيما تخفيه وما تبدي
فلقد أذكى سرج السعد صلوات الله على المهدي
الهادي الناس إلى النهج (الغبريني، 1979، 331)

وإذا كان القرطبي قد أشار بعمق إلى ما سبق تقديمه من معان، فإن ابن النحوي آثر الاختصار ولم يفصل فيها، محددا أهميتها للمريد، وهو يرتقي من مقام إلى مقام – وقد عرضناها سابقا – مركزا على أهمية الجمع بين العقل والقلب؛ لأن الحصول على المعرفة التي يعرفها ابن عربي بقوله: " المعرفة أن تعرف ما أنت عليه وما هو عليه" (بريكة، 2006، ص 280)، لا تكون بطرف دون آخر، "فالعقل لسان الظاهر، والقلب لسان الباطن" (بريكة، 2006، ص 69)، والبداية دائما تكون للعقل الذي يتدبر ويتأمل؛ لأنه يمثل "المعرفة النظرية التي هي عماد المعرفة الأولى التي هي معرفة الله" (بريكة، 1979، ص 281)، ثم ينتقل الأمر للقلب الذي يتذوق، وهنا يكمن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، إذ قد يشتركان في الإدراك والتدبر والتأمل، ومعرفة صفات الله ونعوته، والتفرقة بين الحلال والحرام، ولكن الفيصل بينهما أن غير المؤمن، يتوقف عند حدود الصفات والأحكام، أي ما يمليه العقل فقط، أما المؤمن فيتجاوز كل ذلك إلى التذوق، نتيجة امتلاء قلبه بالإيمان، الذي يجعله يتذوق كثيرا من المعاني

كالخوف من الله، ومحبته، والشوق إليه، فلا عرفان من غير تذوق، وإن أحاط العبد بالعلم بالله ومن الله، لذلك يؤكد ابن النحوي على هذه المسألة التي تتعلق بباطن الإنسان، الذي هو "بيت الاحتراق على الدوام، وبقدر معرفته بالله تكون قوة الباطن" (بريكة، 2006، ص 67)، فيقول ابن النحوي:

وتأملها ومعانيها تأتي الفردوس وتبتهج

واشرب تسنيم مفجرها لا ممتزجا وبممتزج (النحوي، 2017، د.ص)

ومثلما يتجلى لنا في هذين البيتين فإن ابن النحوي يصر على ضرورة التذوق الصافي الذي لا تشوبه شائبة من مخالطات الاعتقادات غير السليمة، التي لم يتوسع في تفصيلها، واختصر الأمر في قوله (لا ممتزجا وبممتزج)، وهنا مكمن السر، سر التجلي والإبانة الذي لا يتحقق إلا بتحقق سلامة الاعتقاد.

الأمر المتفرَّق فيه أيضا أن ابن النحوي أخَّر مسألة التوسل والابتهال إلى آخر القصيدة، معتمدا على بيان مراتب العلم التي يجب على العبد سلوكها حتى يتحقق له الفوز، وقد يكون هذا التأخير مرتبطا باستسلام ابن النحوي لحكم الله، ُمِقًّا بكرم جوده ومنته، جاعلا مسألة التوسل والابتهال مسألة متعلقة بالعبودية، لا بسبب غاية الفرج في حد ذاتها؛ لأن نفسه متيقنة من عدل الله، وحكمة تصرفه، فيقول:

واختم عملي بخواتمهم لأكون غدا في الحشر نجي

يا رب بهم وبآلهم عجل بالنصر وبالفـــرج (النحوي، 2017، د.ص)

أما القرطبي فنظن أن مسألة تبركه بالقصيدة، هي التي جعلته يفتتحها بالتوسل بالرسول الكريم مُحَّد ﷺ، مع الاختتام مرة أخرى بالتوسل والابتهال، معتمدا في ذلك على ظاهرة التخميس، التي لم تكن مجرد ظاهرة فنية اعتمد عليها القرطبي، بل ضرورة تطلبها التوسع في المعاني دون الخروج عن إطار القصيدة المنفرجة بكل ما تحمله من قيم عرفانية، حرص القرطبي على تمثلها، والإضافة فيها بما يجعل قصيدته في مقام المنفرجة من حيث طلب الفرج والسعي لتحقيقه.

النتائج ومناقشتها:

إن القصيدة المنفرجة ومثيلتها المخمسة هما من القصائد المثيرة للاهتمام، لما تثيرانه من أسئلة حول طبيعة مضامينهما، والغايات المرجوة منهما، وقد سعى هذا البحث إلى رصد خصوصية هذا اللون الشعري من الناحية الفكرية، والذي تأسس للابتهال والتوسل ثم تحول إلى التبرك، محيلا إلى طبيعة الرؤى المذهبية والدينية المتحكمة في الخلفية الفكرية لكل شاعر، وطبيعة القيم العرفانية التي تمظهرت في القصيدتين عبر ما توافق منها وما اختلف، ويمكننا بعد هذه الوقفة المتواضعة بين يدي القصيدتين، تقديم النتائج الآتية:

-رغم أن ابن النحوي كان متصوفا، والقرطبي كان فقيها؛ إلا أن ما يجمع بينهما أكثر مما يفرق؛ لأن الجامع بينهما هو الامتثال لما جاء في القرآن والسنة، وهو ما جعل العلاقة بين القصيدتين علاقة طيبة، فيهما من عناصر التوافق والتقارب أكثر من عناصر الاختلاف، وقد وطَّد ذلك، الجو العام الذي كان سائدا في عصريهما، والمتميز بالانفتاح والتسامح والتعايش وقبول الاختلاف، رغم الأزمات السياسية والمشاكل الاجتماعية.

-تكشف القصيدتان عن التكامل الحاصل بين المذهب السني، والمذهب الصوفي القائم على التيار السني والفلسفة، وهو تكامل ناتج عن الأرضية المشتركة بينهما، وهي الاحتكام إلى المصدر القرآني والسني.

-اعتنت القصيدتان بفكرة واحدة، وهي مسألة التدرج في العلم الذي يقود إلى معرفة الله، إذ يتكون من مراتب ثلاثة، وهي: العلم بالله، والعلم من الله، والعلم مع الله، مع ما يتخلل ذلك من شدائد وأزمات، لا يتم تجاوزها إلا بالإيمان، والإيقان، والمجاهدات.

-اختلاف القصيدتين ليس كامنا في جوهر معرفة الله، ولا في المنهج الموصل إليه، إنما ارتبط فقط بتوسع قصيدة القرطبي في شرح المراتب والمقامات والصفات والأحوال، أما قصيدة ابن النحوي فكانت مختصرة لذلك.

-الغرض الحقيقي للقصيدتين ليس التوسل والابتهال، بقدر ما هو حث النفس البشرية وتعليمها السبيل الحقيقي للتقرب من الله سبحانه وتعالى، عبر تربيتها وتهذيبها وإصلاح معتقدها، وحثها على المجاهدات والاستمرار فيها .

-أهم قيمة يمكن استنباطها من القصيدتين، أن كل علم ومعرفة هما مَنَّةٌ وجُودٌ من الله سبحانه وتعالى، وأن العبد في تدرجه وسيره لا مشيئة له إلا بمشيئة الله العادل والمدبر أحسن التدبير، غير أنه على العبد الاجتهاد والاستمرار في سلوك طريق الحق.

الخاتمة:

إن أهمية القصيدة المنفرجة والقصيدة المخمسة لها، تكمن في أنهما مرجعان مهمان من الناحية الفكرية والتاريخية، فأما من الناحية الفكرية فيمكن للقارئ التزود ببعض المعرفة المتعلقة بالتجربة العرفانية، وما تتطلبه من قيم وشروط، وأما من الناحية التاريخية فيمكن من خلالهما معرفة الجو العام للفترات التي ظهرت فيها القصيدتان، وطبيعة العلاقة بين المذاهب الفكرية، وهو ما كشفت عنه هذه النماذج الشعرية التي لا تقل قيمة عن أي عمل تاريخي أو فكري.

كما أن الأمر يتطلب ضرورة البحث في هذا النوع من الشعر والعودة به إلى ظروف نشأته، ومعرفة مرجعياته المذهبية، بما يعين على التزود بكثير من المعطيات الفكرية والمعرفية، التي ترفع الغطاء عن تفاصيل كثيرة ذات صلة بالمؤثرات الثقافية والفكرية السائدة.

الإحالات والمراجع:

1- بونابي، ط. (2004). **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 الهجريين، 12 و 13 الميلاديين.** عين مليلة. الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

2- نويهض، ع. (1996). **أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر.**(ط2) بيروت، لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية.

3- الغبريني، أ. (1979). **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تح: عادل نويهض. (ط2). بيروت. لبنان: منشورات دار الآفاق الجديدة.

4- منصور، م. (د.ت). **الأثر الصوفي في الشعر المعاصر**. دار الأمين للنشر والتوزيع

5- بليل، عبد الكريم. (2009). **المقارنة بين العلم والمعرفة.** شبكة الألوكة. www.alukah.net/culture (12-09- 2022) توقيت: 14:10.

6- بن بريكة، م. (2006). **التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان.** (ط1). الجزائر: دار المتون للترجمة والنشر والطباعة والتوزيع

7- الزهراني، ع. (2022، يناير)، المبادئ التربوية لمعالجة الأزمات في قصيدة المنفرجة لابن النحوي. مجلة التربية، ج 3 (العدد 193)، 546 – 590.

8- ابن النحوي، مُحَمَّد بن يوسف التوزري التلمساني.(2017). **القصيدة المنفرجة.** مدونة برج بن عزوز. www.albordj.blogspot.com (20- 02- 2021) توقيت: 16:14.

9- ابن تيمية، ت. (1990). **أعمال القلوب أو المقامات أو الأحوال.** (ط1). مصر: دار الصحابة للتراث بطنطا

10- ابن خلدون، ع. (1996). **شفاء السائل وتهذيب المسائل.** تح: مُحَمَّد مطيع الحافظ. (ط1). بيروت. لبنان. دمشق. سوريا: دار الفكر المعاصر. دار الفكر.

11- الشافعي، زكريا بن مُحَمَّد الأنصاري. (2017). **الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة.** مدونة برج بن عزوز، www.albordj.blogspot.com، (21- 02- 2021)، توقيت: 16:45.

12- خريوش، ح. (2007)، التأصيل المعرفي في المنفرجة بين النظر العقلي والتصوف الفلسفي لأب الفضل يوسف بن النحوي، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد 4 (العدد 1)، 137 – 165.

13- بن دوية، ش، (2015)، **التصوف والسلم مقاربة أخلاقية**، (ط1)، لبنان، المغرب، منشورات ضفاف، دار الأمان

14- عليوي موسى، ج، (2015)، **النفس وتجلياتها الشيخ عبد القادر الجيلاني**، (ط1)، لبنان، المغرب، منشورات ضفاف، دار الأمان

15- حنفي، ح (2009)، **من الفناء إلى البقاء محاولة لإعادة بناء علوم التصوف الوعي الذاتي**، (ط1)، ليبيا، لبنان، دار المدار الإسلامي